

# شبهات التجريبية المنطقية ضد الميتافيزياء

بقلم د. محمود اليقوبي  
أستاذ بمعهد الفلسفة - جامعة الجزائر -

- 1 - الفلسفات الخاصة والفلسفة العامة.
- 2 - قصور اللغة الطبيعية.
- 3 - نظرية التركيب المنطقي.
- 4 - مشكلة الدلالة.
- 5 - شبهة تماهت الميتافيزياء.

## الفلسفات الخاصة والفلسفة العامة

الفلسفة أنواع ودرجات والجامع بين أنواعها انما هو عمق النظرة في موضوعاتها والموقف النقدي من هذه النظرة فهي في جوهرها طلب للمعرفة عن طريق التفسير الأقصى وتتنوع موضوعات هذه المعرفة القصوى بتنوع ضروب المشاكل التي يواجهها الانسان الباحث . وفعلا فان طبيعة هذه المشاكل ليست واحدة . ويمكن ان نصنفها صنفين أساسيين من اجل حصر بحثنا هذا في نطاق معين نقصده بالذات . وهذان الصنفان هما:

صنف المشاكل التي يرجى ان تحل في نطاق المحسوس، وصنف المشاكل التي لا يرجى ان تحل في نطاق المحسوس.

ان الصنف الاول يتعلق امره من الناحية الفلسفية بالبت في طبيعة الوقائع التي تقدمها لنا الملاحظة ، وفي نوعية العلاقة التي تربط هذه الوقائع بعضها ببعض ويؤول امر البت في ذلك الى ايجاد القوالب اللغوية التي تعبر تعبيراً دقيقاً الى أقصى درجات الدقة الممكنة عن طبيعة هذه الوقائع وعن العلاقة القائمة بينها . وهذا ما تضطلع به الفلسفات الخاصة التي تنطلق من معطيات الملاحظة وتمعن النظري في هذه المعطيات قصد الوقوف على طبائعها وعلاقاتها . ثم تعبر عن كل ذلك بعبارات تريد ان تكون تصويراً مطابقاً للواقع . اذن فهذا الصنف من المشاكل تثيره معطيات موجودة في الأعيان . ويرجع امر البت فيه الى عمق الملاحظة والى دقة التعبير اللفظي .

وهذه الدقة في التعبير اللفظي تضمنها - فيما يبدو - المراعاة الصارمة لقواعد التركيب اللفظي وولمواطن استعمال المعاني في اي نسق رمزي . واذا ما روعيت هذه القواعد والتزم هذا الاستعمال أمكن البت في امر المشاكل التي عندئذ يتضح

مصدرها ويزيلها ايجاد الاتساق - كما هو الشأن في مشاكل العلوم الصورية -  
أو الرجوع الى الملاحظة الحسية كما هو الشأن في علوم الواقع العيني.

وأما الصنف الآخر فهي المشاكل التي يثيرها امر البت في وجود أو عدم  
وجود كيانات ليست لها صورة حسية خارج اذهاننا عدا صورتها اللفظية ، وفي  
طبيعة هذا الوجود وفي نوعية العلاقة التي لهذه الكيانات فيما بينها ، وهذا امر  
تضطلع به الفلسفة العامة أو ما يسمى بالميتافيزيقا.

وقصدنا من وراء حصر المشاكل الفلسفية في هذين الصنفين الكبيرين انما  
هو محاولة حصر مجال بحثنا في نطاق معين نريد ان لا يتجاوزه الى غيره. وقد اصبح  
الآن من الميسور ان نطرح المشكلة التي نريد الخوض فيها ، معتمدين في ذلك على  
الأشكال الذي صار ماثرا للجدال والمناقشة والذي يتمثل في جدوى وفي مشروعية  
البحث الميتافيزيقي ، ومقتنعين مع غيرنا بجدوى ومشروعية البحث الفلسفي الذي  
يريد ان يتعمق معطيات الملاحظة وان يفسر بعضها البعض الآخر وان يصوغ كل  
ذلك في عبارات دقيقة تصور واقع الملاحظة لا غير تصوير مطابقة .

لقد قلنا منذ قليل ان للفلسفات الخاصة موضوعات موجودة في الأعيان ،  
وليس وجودها مظنة للجدال والمناقشة ، بل معرفة هذه الموضوعات معرفة معمقة  
ودقيقة هي التي تثير الاشكالات في النطاق الفلسفي . فالمسألة بالنسبة اليها مسألة  
معرفة لا غير . اما الأمر بالنسبة الى موضوعات الميتافيزيقا فانه يختلف عن ذلك  
اختلافا جوهريا اذ الامر في هذا النطاق يتعلق بوجود أو عدم وجود هذه  
الموضوعات أصلا . فالمسألة بالنسبة اليها مسألة وجود أولا وقبل كل شوفكأن  
الوجود سابق للمعرفة دائما فهو الذي يعطيها لا العكس.

ولوبقي الجدال في حدود وجود أو عدم وجود موضوعات الميتافيزيقا لكان  
ذلك مجرد امعان في البحث الميتافيزيقي بصورة سلبية في بعض أوجهه ، لكنه بلغ في

العصر الحديث درجة من الاتساع أصبح يشمل حتى مشروعية البحث الميتافيزيقي ذاته. لقد انكر الشكك منذ القديم إمكان معرفة الواقع عن طريق الحدس الحسي حاكمين على هذه المعرفة المباشرة بالقصور التام. وطعنوا في صحة معرفة هذا الواقع عن طريق المعرفة غير المباشرة القائمة على استعمال الاستدلال أو تطبيق مبدأ السببية، متهمين العمل الأول بالدور والثاني بالتسلسل، ورفضوا حتى إمكان فكرة الحقيقة، معتبرين الحقيقة ما يضطر العقل إلى قبوله وذاهبين إلى أن ليس هناك ما يضطر العقل إلى قبوله لاعمليا ولا منطقيا. (1)

وجاء هيوم في القرن الثامن عشر ليعطي مذهب الشك صورة أقل سلبية. فقصّر إمكان المعرفة على العلوم الرياضية لأنها علوم برهانية، والعلوم التي تبحث مسائل واقعية موجودة لأنها تعتمد على التجربة. واستند في بحثه في العقل البشري على مبادئ أساسية تعبر عن موقف التجريبيين عامة فأدت به إلى استخلاص هذه النتيجة التي عبر عنها كمايلي: "عندما نجوب خزائن الكتب مقتنعين بهذه المبادئ، فما الذي يجب علينا أن نتلفه؟ فإذا ما أمسكنا بكتاب في اللاهوت أو الميتافيزيقا مثلا فلنتساءل هل فيه استدلالات مجردة حول الكمية أو العدد؟ لا. هل به استدلالات تجريبية حول مسائل تتعلق بالواقع أو الوجود؟ لا. إذن فآلق به في النار إذ ليس به سوى مغالطات وأوهام." (2)

وظهرت أوائل القرن العشرين "جماعة فيينا" (Cercle de Vienne) الذين وجدوا أن خصوم الميتافيزيقا قبلهم لم يقيموا رفضهم للميتافيزيقا على أسس منطقية وعلمية. وتعهد أعضاء هذه الجماعة بالكشف عن تهافت الميتافيزيقا عن طريق الجمع بين التجربة والتحليل المنطقي للقضايا التي تعبر عن معطيات هذه التجربة ورسموا لأنفسهم هدفا هو: وضع لغة علمية تستبعد المشاكل الزائفة وتسمح بتقديم معارف أولية، وبصياغة شروط التحقق منها في أقوال تعبر عن

الملاحظة . وبدا لهم أن هذا البرنامج يمكن انجازَه بواسطة اللغة العادية التي يمكن أن نعلم بها العلم الحديث لأناس ليس لهم سوى هذه اللغة، في حين أننا لا نستطيع أن نخوض معهم في المشاكل الميتافيزيقية الزائفة الا باستعمال لغة خاصة. وليست هذه اللغة الخاصة سوى صورة مشوهة للغة العادية تولدت عنها مختلف الآراء الميتافيزيقية . ويتلخص عمل التجريبية المنطقية في اماطة اللثام عن المظاهر الميتافيزيقية المتكررة في الكلمات العادية (3).

ويعد موقف التجريبية المنطقية أشد المواقف المناهضة للميتافيزيقا عامة . لأنه يطعن في مشروعيتها حتى من الناحية المنطقية . ويمكننا أن ننطلق في بحثنا هذا من آراء واحد من زعماء التجريبية المنطقية هورودلف كارناب (Carnap Rudolf MG) الذي بلور مختلف آراء جماعة فيينا واعطاها صورة النسق الشامل حول الموضوع.

## قصود اللغة الطبيعية

تنطلق التجريبية المنطقية من اتهام للغات الطبيعية بأنها مجرد تصيقات حرة للألفاظ لأضابط لها كافيا . بحيث يجد من يستعملها القدرة على انشاء تركيبات لفظية لمواجهة أي وضعية معينة بدون التقييد بأي ضابط اخر سوى ضابط التركيب اللغوي الذي يبقى ضابطا ضعيفا اذا ما قارناه بمقتضيات الضرورة والكفاية في هذا المجال . ويرجع التجريبون المنطقيون التأمل الميتافيزيقي الى هذه القدرة الحرة على انشاء الكلام التي يتمتع بها الناطقون باللغات الطبيعية والتي لا تعرف الوقوف عند حدود الدقة والوضوح نتيجة لخلو هذه اللغات من معايير الدقة والوضوح التي لا يمكن أن تكفي عنها معايير التركيب اللغوي عندما تراعى . ويضرب كارناب مثلا